صورة المرأة في رواية الرايس لهاجر قويدري

The image of women in al-rais novel by hajar qouideri

د. طيبون فريال*

تاريخ الإرسال: 2020/07/17	تاريخ القبول: 04 / 10 / 2020	تاريخ النشر: 30 / 03 / 2021

ملخص:

إن للمرأة حضورا قويا في الرواية العربية عامّة والجزائرية خاصة، نظرا للدور الفعال الذي تقوم به داخل المجتمع، وقد تفنّن الأدباء في رسمها في أحسن صورة؛ انطلاقا من هذا وقع اختياري على موضوع صورة المرأة في رواية الرايس حميدو للأديبة الشابة هاجر قويدري رغم وجود دراسات سابقة تناولت موضوع المرأة وتصويرها، ولكن يبقى لكلّ كاتب وأديب طريقته المميزة في طرح الموضوع. وقد تناولت الروائية في رواية الرايس موضوع المرأة بطريقة فنية كشفت من خلالها اضطهادهن الممتد منذ القديم، لتطرح أهمّ انشغالاتهن، وعوالمهن الخاصّة الخفية. فجسّدت المرأة بعدّة صور في رواية الريس من أهمّها: صورة الأم، الأخت، الزوجة، الحبيبة.

الكلمات المفتاحية: صورة، المرأة، الرواية، الرايس، قويدري

المؤلف المرسل: طيبون فريال f.tayeboun@univ-boumerdes.dz

* جامعة أمحمد بوقرة -بومرداس

f.tayeboun@univ-boumerdes.dz

Abstract :

Abstract: Women have a strong presence in the Arab and Algerian novel My choice fell on the subject of women's image in the novel by Al-Rayes Hamidou by the young writer Hajar Qouideri ،

Every writer has his own point of view on the subject and his way of presenting it In Al-Rayes' novel, the author approached the subject of women in an artistic way ,to present his important concerns and their hidden worlds. He embodied the woman in several pictures in Al-Rayes novel the mother, sister, wife, and the beloved.

Key words: **woman, novel, rais.**

*** *** ***

1. مقدمة:

كتبت هاجر قويدري روايتها (الرايس) لتحكي فيه عن فترة الحكم العثماني للجزائر، وتتخذ من شخصية الرايس حميدو وهو أحد أمراء البحر الجزائريين المشهورين محورا لروايتها. كما تقوم الرواية بتصوير الحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر في تلك الفترة، حيث كان العثمانيون يتحكمون في البحر الأبيض المتوسط، وجعلوا من قوّة أسطولهم وقرصنتهم الدائمة في البحار مصدرا رئيسيا لملء خزينتهم، ويتوزّع السرد إلى فصول تبدأ زمنيا من 1791م إلى 1815م تاريخ وفاة الرايس حميدو، فهو نص سردي يوظف التاريخ من منظور روائي معاصر.

إنّ الرواية بشكل عام تطرح عدّة تصورات عن المرأة والصراع الذي تعيشه في واقعها باعتبارها تفتقد كلّ عناصر امتلاك الذات والتصرّف فيها كذلك تفتقد القدرة على التفكير والاختيار «فطبيعة المجتمع تقتضي تحكّم الرجل في أمور الأسرة وسيطرته على المرأة كما أنّ حفاظ الرجل على شرفه جعله يبالغ في التشديد على المرأة.[1]» فهي تابعة للأب، وملحقة بالزوج، وبهذا تظلّ المرأة حاملة لهوية تتغير حسب تغيّر مواقع المرأة (ابنة، أخت، زوجة)

وحاولت من خلال هذا المقال إثارة بعض الإشكاليات التي جاءت كالتالي: ما هي صورة المرأة في رواية الرايس، وكيف جسّدتها الكاتبة هاجر قويدري؟ حيث سيكشف هذا المقال عن مدى تأثير الشخصيات الأنثوية في مجرى أحداث الرواية وعن الصورة التي رسمتها الروائية للمرأة خاصة في القرن الثامن عشر مستخدمة في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

2. صورة الأم:

إنّ الأم هي المعجزة التي وهبها الله عز وجل للبشرية، وهي التي وضعت الجنة تحت قدميها، وهي لا تشتكي مهما بلغ منها التعب بل تضحي لأجل أبنائها بكل حب، وقد حصلت الأم على تكريم خاص في الدين الإسلامي فجعل الله سبحانه وتعالى رضاها وطاعتها مقترنا بطاعته ورضاه ودعا لبرّها واحترامها وطاعتها والرضوخ والتذلل لها ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما (23) ﴾ [2]

فالأم وحدها صاحبة القدرة غير المحدودة على العطاء والتفاني، إلى جانب كونها رمزا للوطن وللأرض فهي التي تنشئ الأطفال وتربيهم وتوجيههم وتعلمهم ف« الحديث عن الأمّ حديث عن الأصل، عن الطفولة التي يعود الروائيون إليها كثيرا في أعمالهم وهو حديث عن صاحب الفضل في وجود الشخص وتربيته.[3]»

وقد عادت هاجر قويدري إلى مرحلة تاريخية مهمّة من التاريخ الجزائري نهاية القرن 18 واختارت الرايس حميدو أحد رياس البحر الجزائريين بطلا لروايتها مع مجموعة من الشخوص الأخرى التي تدور في فلك ومحيط حميدو، ومن بينهم والدته التي كانت تعيش بمفردها في منزلها تبكي ولدها الذي اختار الجهاد والبحر وتركها وحيدة،

وقد وصفها علي طاطار صديق حميدو قائلا: « كانت والدته العجوز حنونة جدّا، بكت طويلا أمامه شعرت أنّها تبكي على حميدو وليس على زوجها المتوفي.[4]»

كانت زوينة تبكي ألما لأجل حميدو الذي صارت تراه نادرا، بل كانت تتعذّب كثيرا لبعد ابنها عنها حتّى أنّها صارت تذهب دائما إلى الميناء لتسأل عنه رغم أنّها تدرك جيّدا أنّ عودته صارت أمرا صعبا:

« - ما الذي جاء بك يا والدتي، إن شاء الله يكون خيرا.

- يا ولدي، لم أر حميدو منذ عيد الأضحى، وأريد رؤيته.
- لكن حميدو في عرض البحر وأنت تعرفين هذا
- نعم سأبقى هنا حتّى يرسو، لقد وعدت خطيبته بأن أجعله يعقد قرانه معها فور نزوله البحر.
- لكن رحلات البحر تدوم شهورا شهورا، هل ستنتظرينه هنا كلّ هذا الوقت؟

ساد صمت طويل جعلني أفكّر جدّيا في فرضية القائد اليولداش، إمّا أنّها مخبولة فعلا وإنّما تنفذ خطّة ما لهروب حميدو، لكنها سحبتني قائلة: وصلت الأمور إلى نهايتها معي.[5]» وهذا الأمر ليس غريبا فمن مظاهر حبّ الأمّ لأبنائها الحرص عليهم، منذ مرحلة التفكير في الحمل بهم، وإلى أن يكبروا ويصبحوا رجالا .

رفضت الأمّ زوينة أن تلفظ أنفاسها حتّى ترى حميدو إنّه قلب الأم، التي خشيت أن تموت دون رؤية ابنها: « جاء حميدو إلى المنزل بعد أن أبلغه مزيان أنّ العمّة زوينة تموت، هي تموت منذ ثلاثة أشهر ولكنّها لم تشأ لفظ أنفاسها الأخيرة. كانت بالفعل تريد

رؤيته للمرّة الأخيرة لقد مسكت يده بالقوّة، اقترب منها، قالت له كلمات لعلّه لم يفهمها، فلم يكن لديها صوت منذ سنوات، ثمّ نظرت في عيونه وسلّمت الروح.[6] ».

وعموما فإنّ الأمّ زوينة هي منبع الحب والحنان والعطاء، وتمثل صورة الأسرة بأكملها وبوفاتها تنتهي الحياة، فلا حياة بعدها إلاّ حياة الذلّ والتشرد وهذا ما شعر به حميدو.

كذلك لالا نورية الراشباطية المرأة اليهودية والدة يحي مديلي خوجة الغنائم التي تميّزت بشخصيتها القوية وكذلك قسوتها حتّى مع ولدها الوحيد واحتقارها له كونه ابن عربي مسلم:« لم أسأل يوما لماذا اختفى عبد القادر الصايغ من حياتنا فجأة عندما كنت في السادسة من العمر، ولا حاولت بعد ذلك معرفة مكانه، لقد كانت وحدها إلى جانبي قامت بتلقيني أكثر من لغة ثمّ جعلتني أنكبّ على تعلّم مهنة الصياغة، بحيث لم أكن قد بلغت الثانية عشر من عمري عندما عاودت فتح دكان الصياغة الذي ترك والدي كلّ معداته بداخله.[7]»

كانت نورية الراشباطية هي المتحكمة في زمام الأمور، ترملت في سنّ صغيرة بعد أن أنجبت ابنتها الجوهر ثمّ تزوجت عبد القادر الصائغ والد يحي العربي المسلم ولكنه اختفى بعد ذلك، ما جعلها تحقد على ولده وتعامله دائما بقسوة واحتقار: « لقد أنجبتك بقلبي، لقد كان والدك عربيا ولم أفكر في الذي سيأتي.[8]»

بعد أن أصبح يحي مديلي باشكاتب لدى الداي تمنّى لو كانت والدته لالا نورية الراشباطية حيّة ليخبرها أنّه ترقى في عمله ، وأنّه لم يعد ابن عبد القادر الصائغ العربي المسلم، بل أصبح يهوديا راشباطيا مثلها: « انظري جيّدا، لم تجعليني يوما رجل الدار وفضّلت علي زوج ابنتك الراشباطي المقرف... ها أنا الآن الرجل الذي لا يمكنك تخيّله، لقد صرت باشكاتب إيالة الجزائر، أكتب الرسائل بكلّ لغات العالم، وأصادق على ما

يحلو لي وأرفض ما ليس يروقني.[9]» وتعتبر والدة يحي مديلي رغم كلّ قسوتها السبب الرئيسي الذي جعل يحي يتقدّم في عمله ويرتقي فيه بفضل دعمها المادّي له والمعنوي.

جاءت الأمّ في رواية الرايس حميدو عظيمة في كل ما تفعله من أشياء صغيرة كانت أو كبيرة من أجل أبنائها، فهي التي تصنع الأبطال مهما كانت جنسيتها أو دينها وهذا ما أرادت قوله الكاتبة من خلال صورتي الأم زوينة ولالا نورية الرشباطية، لقد كانت قوية حتى في ضعفها بل هي رمز لثبات القيم ولمّ شمل العائلة وهي التي تفني حياتها في تربية أبنائها، كما تعد الأمّ رمزا للخير في هذا العالم المليء بالشرور.

3. صورة الأخت:

تعرضت هاجر قويدري لشخصية الأخت العذراء وعرضت وضعها المعذّب في الحياة من خلال شخصية مريم، التي شكّلت عبئا ثقيلا على أهلها الذين يريدون تزويجها بأيّة طريقة حتّى يتخلّصوا منها «صحيح أنّ هناك خصوصية للمرأة متمثلة في معاناتها الثنائية – التي تتضح في الاستغلال العام الموجّه للإنسان كقيمة إنسانية- وهنا يشترك الرجل والمرأة ولكنّها تعاني أيضا بالإضافة للاستغلال العام- استغلالا خاصا في مجتمع الذكورة الذي تحياه من حيث كونها أنثى.[10] ». لقد كانت مريم تعاني كثيرا من كلام زوجة أخيها ميلية التي كانت تعاملها بقسوة مطلقة وتجبرها على تربية أولادها.

فمريم فتاة يتيمة بعد موت والديها صارت تعيش تحت رحمة إخوتها وأزواجهم « في السنة الماضية فقدت أمّي، وفي السنة التي سبقتها فقدت والدي؟ وأنا بالنسبة للجميع فاقدة للحياة لأنّني تجاوزت عتبة الثامنة عشر دون زواج.[11]»

وحقيقة أنّ المرأة العربية في الغالب هي المرأة المقهورة السلبية الخاضعة للهيمنة الذكوريّة، فهي تابعة ومقموعة، وهكذا صورتها معظم الروايات، ولم تخرج المرأة عن هذه الصورة إلاّ في حالات محدّدة « فالزواج كما هو معلوم يرتبط ببلوغ المرأة ونضجها

الجسمي والجنسي ويبدو المجتمع العربي عامّة مستعجلا لأمر تزويج المرأة، معتبرا أنّ بلوغها يبدأ مبكرا، فسنّ العاشرة أو التاسعة كاف لأن تزفّ المرأة إلى زوجها في المجتمعات الريفية.[12]» لهذا فمريم بالنسبة للجميع هي امرأة عانس لا جدوى منها.

ومريم رفضت كلّ من تقدّم لخطبتها لأجل حميدو ابن عمّتها الذي أحبّته كثيرا لقد تحمّلت مريم الكثير من أخيها ومليّة، إنّ سوء معاملة إخوتها ونسائهم لها جعلها تصاب بالحمى وتمرض « وفي اليوم الخامس أصبت بالحمّى وخار جسدي فجأة، بقيت أرتعش طوال اليوم، لم يقترب منّي أحد، حتّى أنهن أخذن فراش أبنائهم من غرفتي وأوصدوا أبوابهم، بقيت وحدي أرتعش، كنت بين الفينة والأخرى ألمح وجه مريم الصغيرة تطلّ عليّ خلسة؛ ثمّ أسمع صوت ملية وهي تنهرها وتعيدها إلى غرفتهم قائلة لها: المرض الذي تحمله معد يا صغيرتي.[13] »

لم يرحم أحد مرضها بالحمّى التي أصيبت بها والتي كانت نتيجة عملها الشاق الذي كانت تقوم به دون كلل أو ملل « إنّ هذا السلوك إزاء المرأة مردّه ترسبات ذهنية عملت النظرة الدونية للمرأة على تعميقها.[14]» وللأسف موقع المرأة في المجتمع العربي موقع دوني يقلّل من شأنها وقدراتها بشكل عام، وهذا ما حاولت هاجر قويدري إبرازه من خلال الرواية.

حتّى لخضر السليماني العطار جارهم القديم وصديق والدها المقرب لم يعجبه الأمر وأثارت شفقته فعبّر عن صدمته بمعاملة عائلتها لها قائلا: « ساقاها متورمتان جدّا، وهذه الحمى هي نتيجة إعياء شديد، ماذا تفعلون بهذه المخلوقة اتقوا الله.[15]»

بعد خطبة حميدو لمريم قرّر الزواج بها بعد سنة، لم يكن حميدو مرتاحا لهذا الزواج كونه كان يعرف أنّ حياته كلّها للجهاد كان وعد حميدو لها بالزواج كاذبا حين

قال لها أنّه سيعقد القران في السنة المقبلة، ولكن ذلك لم يكن ما اضطرّها للانتظار لسنوات عديدة.

يقول الدكتور مفقودة صالح: « إنّ وجود المرأة لا معنى له بدون الرجل، ولذلك تبقى في انتظاره وتهيّء نفسها وتشتغل باجتهاد لانجاز أنواع من الستائر والمناديل، وتخفي كلّ ذلك في صندوق خاص وتتكتم على الأمر؛ تنتظر الرجل، إنّها فترة التربص بالنسبة للنساء وفترة الحبّ المكتوم، وتبلغ النمطية ذروتها حين تعثر الفتاة على ضالتها.[16] » وهكذا مرّت السنين ومريم تنتظر عودة خطيبها حميدو ليعقد قرانه عليها ولكنّه لم يفعل، وملية وأخوها مخلوف لا يزالان يقسوان عليها ، كانت مريم تعاني في صمت قسوة الجميع معها حتّى حميدو الذي أحبّته كثيرا تركها، وذهب للجهاد وها هي سنوات تمضي من شبابها لم يحدّد فيها مصير هذه الفتاة الشقية.

يضيف مفقودة صالح: « والمرأة المحبّة في هذا الاتجاه الروائي امرأة عفيفة طاهرة تتصف بالعذرية والحشمة تمكث بالبيت منتظرة فارس الأحلام، وقد تعترض هذا الهدف بعض العوائق، وعندها لا تلجأ المرأة إلاّ للصبر والكتمان، والاتكال على الأقدار والاعتماد على ذوي الشأن في الأسرة.[17] »

كانت مريم مثل الوردة التي صارت تذبل يوما عن يوم في انتظار حميدو الذي وعدها بالزواج لكنّه لم يأتي، مريم التي ضيّعت كلّ شبابها وحياتها في انتظار ابن عمّها حميدو: « لابدّ أن لا أتوقف عن التطريز أبدا وإلاّ وقعت على الأرض وعرفت أنّ عمري 42 سنة وأنا هنا أنتظر حميدو ليتزوجني منذ أكثر من 24 سنة. ومع ذلك وقعت آلاف المرات على الأرض، وعرفت كلّ أوجاعي ولم أعد أنتظر حميدو حتّى يتزوجني، أنا أنتظره برفقة أشكالي الملونة وزهوري وعصافيري لأنّ ذلك أصبح أمرا حتميا أقوم به كلّ يوم كما الأكل والشرب والنوم.[18] »

تلخص هاجر قويديري تلك العلاقة الظالمة الموجودة بين حميدو ومريم وكيف يأخذه البحر منها ويجعلها تنتظر سنوات طويلة دون أن يتمّ زواجهما، حتّى وصلت سنّ الأربعين لتتمكن من خطف ساعات قليلة مع الرايس حميدو على ظهر سفينته التي لم يفارقها إلاّ أثناء مقتله.

« وصلت البيت، صارت تالية تزغرد، فلم أكثرت، دخلت الرحبة بعدما حملت إليها خيوطي الملونة وأقمشتي، ولكنّني عندما بدأت العمل تعثرت أصابعي بالإبرة مرات ومرات تحسست الدم الحار وأنا أضع أصبعي في فمي، كنت أريد أن أخرج وأحضر بعض الماء حتّى لا يتسلل الطعم إلى حلقي، لكنّني لم أر الباب، ولا رأيت تالية وهي تمسك بيدي، عرفت أنّني فقدت عيوني.[19] » هذه المرأة التي أفنت 40 سنة من حياتها في خدمة أخويها وأبنائهما قدّر لها أن تمضي بقية حياتها عمياء ضريرة لا تبصر شيئا سوى ذكرياتها الحزينة.

وعموما تمثل شخصية مريم امرأة عانت الرفض من مجتمعها ومن عائلتها فقدت كلّ حقوقها في الحياة كامرأة لها كيانها وشخصيتها، بل ككائن بشري له إرادة يجب أن تحترم وعواطف ينبغي أن تقدّر.

4. صورة الزوجة:

يعدّ الزواج أمرا مهمّا في مجتمعنا الإسلامي والعربي كونه نصف الدين وخاصة بالنسبة للمرأة فهي « في كلّ الحالات إمّا أن تكون متزوجة أو تعدّ نفسها للزواج، أو تتألم لعدم حصوله فارتباط المرأة بالزواج إذن هام.[20]» وهذا جعل المرأة في مجتمعنا تعاني عقدة نقص فهي ترى نفسها غير كاملة ولا تساوي شيئا إذا لم تكن زوجة وأما.

وتتمثل صورة الزوجة في رواية الرايس من خلال ثلاث شخصيات ملية وحوتة وتالار، وتعدّ ملية زوجة الأخ الشريرة القاسية الغيورة التي لا تتوانى لحظة واحدة في جرح مشاعر مريم وأذيتها بكلّ السبل حتّى أنّها جعلت منها خادمة لها ومربية لأطفالها:

« ما بك... ما الذي أجحظ عيونك بهذا الشكل؟ الموجع أنّني أملك إجابات كثيرة، ولا أعرف ماذا سأختار من بينها حتّى تكون أكثر إقناعا، هل سأقول أنّ هذا هو عامي السابع منذ أن تقدّم حميدو لخطبتي ولم نتزوج بعد. أم سأقول أنّها ملية زوجة أخي مزيان سكبت قارورة قطران كاملة على جهاز عرسي الذي أنفقت فيه سنوات وليال في التطريز والحكاية أم سأشكو عيوني التي بدأت تؤلمني منذ فترة وتفرز كل صباح خيوطا صفراء ولا أحد يعلم بأمرها.[21] » ملية هي امرأة غيورة قد يدفع بها حقدها وحسدها لإتلاف جهاز أخت زوجها فقط لأنّها رفضت الاعتناء بابنها الرضيع.

كانت ملية شريرة سليطة اللسان لم تكفّ يوما عن إيذاء مريم واحتقارها وأيضا استغلالها وجعلها خادمة لها ولأولادها: « إنّها لعينة وسليطة اللسان ومع ذلك تزوجت مزيان أرقّ وأحنّ أخوتي مزيان الذي يجرحني ولم أسمع منه ما يزعجني يوما، إنّه الوحيد الذي لا يزال يتذكر أنّ في البيت أختا صغرى، يتيمة ولا صدر ترتمي عليه وليست خادمة تطبخ وتمسح وتربي صغار إخوتها، مزيان بقية صالحة من وجه أمّي؛ لذا أشعر بأنّ مريم الصغيرة بعض روحه.[22] ».

ولكن زواج مزيان من نتالي التي تحوّل اسمها فيما بعد إلى تالية كان ضربة قاضية نحو مليّة التي انهارت أعصابها إثر هذه الصدمة، وخاصّة أنّ نتالي هي سبية برتغالية رائعة الجمال سحرت مزيان فتزوّجها وصار لا يغادر غرفتها كما تقول الرواية:

« عانت ملية طويلا بسبب هذه الزيجة، في الأيام الأولى توقفت عن الكلام وعن الأكل، حتّى صارت نحيلة جدّا وعيونها كما حفرتين غائرتين، لم يهتم مزيان لذلك، ولم

يأبه لألمها العميق، لكنّها في المقابل تمكنت من كسب عطفنا جميعا سيما ابنتها مريم التي صارت تهتمّ بكافة تفاصيلها ثمّ بدأت تفيق شيئا فشيئا، وصار يحلو لها مراقبة هذه الوافدة الجديدة (نتالي) قبل أن تستقر في المرحلة الأخيرة بحياكة المكائد لها.[23] » لقد وجد مزيان الحل لملية الشريرة فقرّر الزواج بامرأة أخرى وكان ذلك كفيلا بان يجعل ملية تنهار وتنكسر.

أمّا حوتة زوجة مخلوف أخ مريم كانت تختلف تماما عن ميلية فقد كانت طيبة عكس مخلوف الشرير الذي كان يسيء معاملتها كما يسيء لأخته أيضا « حوتة طيبة جدّا ولا تستحق العذاب يكفيها عذاب أخي مخلوف وطبعه الخشن.[24] »

تمثل كلّ من ملية وحوتة صورة المرأة التقليدية المنسجمة غالبا مع واقعها « فهي تلك المرأة التي تقبل وضعها الأدنى برضى وسرور وتجد سعادتها في خدمة زوجها وأطفالها.[25] » فهي المستسلمة لظروفها صاحبة التفكير البسيط، والوعي المحدود، اهتماماتها بسيطة كما تجدها خاضعة للعادات والتقاليد مستسلمة لحكم القدر راضية بحالها كيفما كان.

أمّا تالار فهي امرأة أوروبية تعمل في تطريز الثياب التي تخفي وراءه مهمتها التجسسية التي تكلّف بها في بيوت الشخصيات السياسية « بدأنا نحقّق الأحلام سريعا، ولم يتبق لنا شيء مكتوم في حجر الأماني، ومع ذلك لم يحمد زهراب ربّه وراح يشدّ الحبل من الجهتين، تارة مع الانجليز وتارة أخرى مع الأمريكان، بل وكان على علاقة بإحدى بنات التطريز اللواتي كنّ يشتغلن في بيتي، لقد رأيته وهو يقبّلها خلسة في آخر الليل، وكنت حاملا للمرّة الثالثة، كان ذلك أصعب ما حدث لي، لم أفكّر طويلا عدت إلى صيدا وإلى حزني الأوّل فلم أعد أريد حياة الخوف تلك، لقد أصبح زهراب من بعدي كما اللص، يهرب من مكان لمكان، وفي نهاية الحكاية سرق كلّ أموالي ورحل إلى بريطانيا.[26] »

هذه هي تالار التي فعلت كلّ شيء لتعيش مع عائلتها في غنى ورفاهية، ولكنّ زوجها زهراب لم يقدّر تضحياتها لأجله ولأجل أبنائهما فخانها، ثمّ لم يكتف بذلك بل سرق كلّ أموالها وهرب، وتبقى الزوجة هي التي « تحمل وتلد وترضع وتربي وتعلم، وتحارب نزوات الرجل بالضعف إذا صلح، وبالقوة إذا لزم الأمر موجهة كلّ ذلك الجهد إلى الاحتفاظ بشيئين: الأسرة والولد، الأسرة للحاضر، والولد للمستقبل، وليس لها من كلّ ذلك غنم ولا ربح، ومن ثمّ كان لها تلك الغرائز النبيلة السامية.»[27]

لم تتوقّف مآسي وأحزان تالار عند هذا الحدّ بل فوجئت أيضا أثناء زيارتها للجزائر بمقتل أختها الوحيدة ذبحا من الوريد إلى الوريد بطريقة بشعة مقزّزة، فكان الحلّ الوحيد لديها أن تعود للعمل مع أمريكا لكي تعيل نفسها وأولادها فشدّت الرحال باتجاه طنجة ومنه كانت على استعداد للذهاب لأمريكا إلى أن جاءتها أوامر بمهمّة جديدة:

« في ذلك المساء جاء جورج برفقة تاجر القماش الأمريكي جاكسون، حيث جلس برفقتي مطولا وأطلعني على مهمّتي الجديدة التي ستكون هذه المرّة في الدزاير لم أستسغ الأمر في البداية، لكنّني وافقت فيما بعد، لقد أخذ طليقي كلّ أموالي وأولادي بحاجة إلى المال، الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه هو أن لا تطول رحلتي، وأن لا أبتعد عن أطفالي لوقت طويل.[28]»

ولكن تالار لم تتمكّن من الذهاب إلى الجزائر للتجسّس على القنصل البريطاني كما هو متفق لأنّ الموت كان أسبق إليها من ذلك « حينها مرّ بجانبنا غلام يبيع الورود ترجاني طويلا في شراء ببعض الورود، وافقت من دون تردد، فاستدار إلى جهتها وقدّم إليها باقة كبيرة غطّت يداه التي تسللت وطعنتها طعنة مميتة في جهة القلب، تناثرت

الورود وفرّ الغلام هاربا، وهوت تالار على صدري وصارت تتمتم: أولادي.. اعتني بأولادي.»[29]

ولكنّ المفاجأة ليست في مقتل تالار بل في كون زوجها زهراب هو الذي وشى بها إلى الانجليز فقتلوها، دون أن يفكّر لحظة واحدة أنّه بذلك سيشرّد أولاده وسيقضي على المرأة التي وهبت كلّ حياتها لإسعاده.

« بعد مقتل تالار بأيام اختفى يوسف خادمها الخاص عن البيت فتأكد جورج أنّ زوجها زهراب هو الذي وشى بها وجعل الانجليز يتخلصون منها، كذلك أخبرني بعض الأمريكان الذين كانوا يتابعون تطورات الوضع، فرفعت تقريرا إلى المكلف بالعلاقات الخارجية في مكتب نيويورك وطلبت منهم إنصاف أولادها وتعويضهم عن خسارة والدتهم.[30]»

تالار الجاسوسة لصالح أمريكا التي هربت من صيدا خوفا على نفسها وأولادها من القتل، زارت تالار الجزائر لتصحب أختها الصغيرة معها إلى أمريكا ولكنّها صدمت وفوجئت بموتها ومقتلها، وسرعان ما قتلت هي أيضا

من خلال النماذج التي قدمتها الكاتبة نجد أن الزوجة في رواية الرايس تعيش حالة من الاستسلام والرضوخ إلى أوامر الزوج دون أن يتحرك منهن ساكن، بل أصبحت الزوجة تعيش حياتها على حساب ألمها ومعاناتها وتصبر على أذى زوجها وتضحي لأجل أبنائها فهي لا تتمتع بأي حرية شخصية.

5. صورة الحبيبة:

وتجسّد هذه الصورة كلّ من ليندا وسيتا؛ وليندا هي حبيبة بفاريتو الجميلة، التي كان يحبّها جدّا تسكن بجزيرة قبرص، ولكن سعادتهما لم تكتمل إذ سرعان ما تمّ

نفي والدها ماميلي وحبيبها بفاريتو إلى إيالة الجزائر بعد إبعاد الأهالي لهما لسلوكهما السيّء.

« رأيت ليندا لأوّل مرّة في ذات اليوم الذي دفن فيه القسّ لستيرو، كانت برفقة أمّها التي يعرف الجميع في درمنجلير أنّها مخبولة بعض الشيء (...) أنا أيضا فقدت بعض عقلي حينها ووقعت في حب ليندا، منذ سذاجة سنواتي الثماني لقد أدركت أنّ ليستيرو أهداني إياها لتملأ قلبي ولم يجعلني أنتظر، لقد كان ذلك في يوم جنازته لستيرو أنت المسيح.[31] »

لم يكن لستيرو مجرد قس عادي بل كان رجلا ساعد في تنشئة بفاريتو فقد كانت والدته تتركه معه فكان يعتني به ويطعمه ويهتمّ بكلّ شؤونه كما كان يعلمه تعاليم الدين المسيحي، لم يتخيل بفاريتو يوما أنّه قد يفارق مربّيه العزيز لستيرو ولكنه يؤكّد أنّ الله عوّضه حب ليستيرو بحبّ ليندا التي سكنت قلبه منذ أوّل لقاء بينهما وكان سنه لا يتجاوز ثمانية أعوام. لقد كانت ليندا هدية من السماء لتشفي جراحه بعد فقدانه لمعلّمه ومربّيه لستيرو.

« عزيزي بفاريتو:

أكتب لك هذه الرسالة من داخل الكنيسة باناجيا، لأنّني لم أعد أسكن في درمنجيلر منذ وقت طويل، لقد انتقلت أنا وزوجي وأبنائي الثلاث إلى جنوة، لم أتزوج ذلك اللص ماكاريوس لأنّه ببساطة دخل السجن مرّة أخرى، أنت لا تفارقني ومع ذلك أهرب في كلّ مرّة إلى العناية بحياتي التي تشكلت كما أرادت لها الأقدار، لقد صرت مؤمنة، كثرة الانتظار تجعلك أكثر إيمانا ومع ذلك لا أعرف متى سأفلتك من حياتي.[32] »

كان علي طاطار (بفاريتو) مشتاقا لمحبوبته ليندا كما كان يشعر أنّه ربّما قد تكون نسيته وتزوجت، لكن ليندا ظلّت وفية لحبيبها بفاريتو (علي طاطار) وكانت تضع له

الرسائل دائما في كنيسة باناجيا على أمل أن يعود يوما ويقرأها حتّى بعد زواجها، يقول الدكتور عبد الله رضوان أنّ « العلاقة بين الرجل والمرأة باختيارهما الواعي، تشكّل أرقى العلاقات الإنسانية، بل إنّنا لا نبالغ إذا قلنا أنّها أساس كافّة العلاقات الإنسانية، ذلك أنّ العلاقة مبنية على الحبّ بمعناه الصحيح كاختيار واعي وإرادة حرّة تشكّل إفرازا إنسانيا وتميّزا فريدا في حالته ونوعه.[33] » ولكن الظروف شاءت أن تفرّقهما وإلى الأبد.

كذلك سيتا التي كانت تحبّ وكيل الحرج سيد علي ولكنّها ذبحت في النهاية بطريقة بشعة وهي طبيبة هاجرت من أرمينيا إلى الجزائر وقد أحبّها وكيل الحرج سيد علي ووصفها قائلا:

« كانت جميلة بعيونها الخضراء الصغيرة ووجهها الدائري وشعرها الأسود الطويل، لم أتوقع أنّها ستقول لي وأنا أستعد للمغادرة في مرفأ صيدا.

- سوف نشتاق إليك

أخبرني سعدون فيما بعد أنّها وقعت في حبّي لكنّني كنت فظا مكابرا، ولم أستمع لخفقات قلبي يوما، كان قلبي موجا يلفظ كلّ شيء ولا يحتفظ إلاّ بملحه.[34] »

سيتا ظلّت محبّة لسيد علي وكيل الحرج رغم مرور سنوات طويلة، لكنه عاملها بقسوة كبيرة ولم يهتم لأمرها ولا حتّى برسائلها التي كان يكتفي برميها في البحر « تذكرت حينها أنّه كانت بالفعل تصلني رسائل من صيدا بداخلها ورود جافّة، ظننت أنّها من طرفك، لكنك تعرف بأنّني لا أجيد القراءة، لذا كنت أرمي بها إلى البحر من دون وجع سؤال أحدهم في قراءتها لي.[35] »

لقد كان سيد علي يستغلّها لمعرفة أسرار القصر بعد أن بدأت تعمل في قصر الداي كطبيبة بل وصار الداي نفسه يعاملها كأنّها ابنته، لكن سرعان ما كشف أمرها

فقام حسن باشا بذبحها والتنكيل بجثتها: « لعلّني تألمت وندمت على ضياعها من بين يدي، لكنّني ندمت أكثر عندما قتلت على يد حسن باشا وانا الذي أتيت بها إلى هذا العذاب.[36] »

وهكذا انتهت حياة سيتا بطريقة بشعة نتيجة استغلال سيد علي لها « صحيح أنّ المرأة تعطي، ولكنّها من حقّها أن تأخذ كذلك. وهي تحبّ، ولكن من حقّها أن تحبّ أيضا، وهي تعطي الدفء – بشكله المادي والمعنوي- ولكنّها بحاجة إليه.[37]» فالمرأة الحبيبة لم تكن أقل بؤسا من غيرها بل عانت كثيرا من الاستغلال والعذاب والألم في حياتها.

6. خاتمة:

يتبيّن من خلال ما سبق من دراستنا للرواية أنّه مهما اختلفت مكانة المرأة الاجتماعية فهي تندرج تحت صورة المرأة المحبّة المضحية المستغلة والمقموعة اجتماعيا فهي التي تعيش لأجل الآخر وتعتبره كلّ وجودها « فالمرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هي رقيقة؛ لأنّها لا تعيش بنفسها ولنفسها، وإنّما تعيش بالرجل وللرجل، وهي في حاجة إليه في كلّ شأن من شؤونها، لا تخرج إلاّ مخفورة به، ولا تسافر إلاّ تحت حمايته ولا تفكّر إلاّ بعقله، ولا تنظر إلاّ بعينه، ولا تسمع إلا بإذنه، ولا تريد إلا بإرادته ولا تعمل إلاّ بواسطته، ولا تتحرك بحركة إلاّ ويكون مجراها منه، فهي بذلك لا تعدّ إنسانا مستقلاّ بل هي شيء ملحق بالرجل.[38]»

وهكذا نلاحظ أن المرأة في رواية الرايس هي المرأة التابعة التي تمتثل للتقاليد والعادات الاجتماعية وتستسلم لها، وتتنكر لرغباتها وقناعاتها الشخصية، وهي المرأة المقهورة والسلبية الخاضعة للهيمنة الذكورية مهما كانت صورتها أما أو أختا أو زوجة أو حبيبة.

7. الهوامش:

1 صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق للطباعة للنشر والتوزيع، ط2،2009م، ص 17

2 سورة الإسراء، الآية 23

3 صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص 153

4 هاجر قويدري، الرايس، منشورات ضفاف- منشورات الاختلاف، بيروت لبنان، ط1، ، 1436هـ- 2015م ،ص 41

5 هاجر قويدري، الرايس، ص 71

6 هاجر قويدري، الرايس، ص 187

7 هاجر قويدري، الرايس، ص 96

8 هاجر قويدري، الرايس، ص 97

9 هاجر قويدري، الرايس، ص 114

10 عبد الله رضوان، البنى السردية (دراسة تطبيقية في القصّة القصيرة)، دروب للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، د ط، 2009م ، ص681

11 هاجر قويدري، الرايس، ص 18

12 صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص 68

13 هاجر قويدري، الرايس، ص 32

14 بادي فوغالي، دراسات في القصّة والرواية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، دط، 2010م، ص 167

15 هاجر قويدري، الرايس، ص 33

16 صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص 48

17 صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص 59

18 هاجر قويدري، الرايس، ص 188-189

19 هاجر قويدري، الرايس، ص 191

20 صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص 68

21 هاجر قويدري، الرايس، ص 58

22 هاجر قويدري، الرايس، ص 18

23 هاجر قويدري، الرايس، ص 145

24 هاجر قويدري، الرايس، ص 19

25 نوال السعداوي، المرأة والصراع النفسي، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، الطبعة 3، 1993م ،ص 20-21

26 هاجر قويدري، الرايس، ص 105

27 إسماعيل مظهر،المرأة في عصر الديمقراطية، كلمات عربية للترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية، دط، 2012م، ص 11

28 هاجر قويدري، الرايس، ص 102

29 هاجر قويدري، الرايس، ص 150

30 هاجر قويدري، الرايس، ص 150

31 هاجر قويدري، الرايس، ص15

32 هاجر قويدري، الرايس، ص 163

33 عبد الله رضوان، البنى السردية (دراسة تطبيقية في القصّة القصيرة)، ص 693

34 هاجر قويدري، الرايس، ص 47-48

35 هاجر قويدري، الرايس، ص 49

36 هاجر قويدري، الرايس، ص 50-51

37 عبد الله رضوان، البنى السردية (دراسة تطبيقية في القصّة القصيرة)، ص 703

38 قاسم أمين، المرأة الجديدة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، دط، 201238م، ص 28